مجموعة سيرة الرسول ﷺ

بإشراف

محمد أحمد برانق

(١٩)

غزوة خيبر

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

« أَيُّهَا النَّاسُ .. إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَكَافَّةً ، فَلَا تَخْتَلِفُوا عَلَيَّ كَمَا اخْتَلَفَ الْحَوَارِيُّونَ عَلَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ » .

خَرَجَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا إِلَى الْمَسْجِدِ يَقُولُ هٰذَا الكَلَامَ لِأَصْحَابِهِ .

وَسَأَلَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ رَسُولَهُمْ :

وَكَيْفَ اخْتَلَفَ الْحَوَارِيُّونَ عَلَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ يَارَسُولَ اللهِ ؟

فَأَجَابَهُمُ الرَّسُولُ : دَعَاهُمْ إِلَى الَّذِى دَعَوْتُكُم إِلَيْهِ ، فَأَمَّا مَنْ بَعَثَهُ مَبْعَثًا قَرِيبًا فَرَضِىَ وَسَلِمَ ، وَأَمَّا مَنْ بَعَثَهُ مَبْعَثًا بَعِيدًا فَكَرِهَ وَجْهَهُ وَتَثَاقَلَ .

كَانَ النَّبِىُّ قَدْ عَرَّفَ أَصْحَابَهُ بِمَا اعْتَزَمَ أَنْ يَفْعَلَ ، وَأَنْبَأَهُمْ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يُرْسِلَ بَعْضَهُمْ فِيهِ مِنْ مَهَامّ .

وَكَانَ الَّذِى اعْتَزَمَهُ النَّبِىُّ ﷺ وَأَرَادَ بَعْثَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ فِيهِ – هُوَ إِرْسَالُ رُسُلٍ مِنْ لَدُنْهُ إِلَى رُؤَسَاءِ الْمَمَالِكِ الْكَبِيرَةِ وَالأَقْطَارِ الْمُحِيطَةِ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، يَحْمِلُونَ إِلَيْهِمْ كُتُبًا مِنْهُ يَدْعُوهُمْ فِيهَا إِلَى دَعْوَتِهِ ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمُ الدُّخُولَ فِى الإِسْلامِ .

وَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ هٰذَا الْقَوْلَ لأَصْحَابِهِ خَشْيَةَ أَنْ يُحْجِمُوا ، أَوْ أَنْ تَأْخُذَهُمْ هَيْبَةٌ ، وَتَرْجِعَهُمْ رَهْبَةٌ عَمَّا اعْتَزَمَ أَنْ يُرْسِلَهُمْ فِيهِ .

وَلٰكِنَّ أَصْحَابَ الرَّسُولِ ﷺ أَظْهَرُوا لَهُ حُسْنَ قَبُولِهِمْ ، وَطِيبَ اسْتِعْدَادِهِمْ لِمَا يَوَدُّ أَنْ يُرْسِلَهُمْ فِيهِ .

كَانَ النَّبِىُّ ﷺ مُحِقًّا فِيمَا أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ وَعْدٍ فِى

أَلاَّ يَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ .. لا لأَنَّ أَصْحَابَ النَّبِىِّ ﷺ كَانَتْ تَنْقُصُهُمُ الْهِمَّةُ أَوْ يُخَالِجُهُمُ التَّرَدُّدُ .. لَا ، وَلٰكِنْ لأَنَّ الْمُهِمَّةَ الَّتِى فَكَّرَ فِيهَا النَّبِىُّ ﷺ كَانَتْ مِنَ الْعِظَمِ وَالْكِبَرِ وَالجَسَامَةِ بِحَيْثُ لا يُمْكِنُ أَنْ يُفَكِّرَ فى تَنْفِيذِهَا إِلاَّ امْرُؤٌ وَاثِقٌ ، مُمْتَلِئُ الْفِكْرِ وَالْقَلْبِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، عَظِيمُ الثِّقَةِ بِاللهِ ، شَدِيدُ الإِيمَانِ بِهِ ... وَلا يُمكِنُ أَنْ يَضْطَلِعَ بِالْقِيامِ بِهَا إِلاَّ مَنْ يَكُونُ مُفْعَمَ الْقَلْبِ بِحُبِّهَا ، يَحْدُوهُ الْحَمَاسُ لِتَحْقِيقِهَا ... وَعَلَى هٰذَا كَانَتْ هٰذِهِ هِىَ رَغْبَةُ النَّبِىِّ ﷺ وَإِرَادَتُهُ ، وَكَانَ هٰذَا هُوَ رَدُّ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ يَثِقُونَ فِيهِ وَيُؤْمِنُونَ بِحِكْمَتِهِ .

وَأَمَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِكِتَابَةِ الْكُتُبِ الَّتِى سَيُرْسِلُهَا إِلَى الْمُلُوكِ يَدْعُوهُمْ فِيهَا إِلَى الإِسْلامِ فَكُتِبَتْ ، وَكَانَتْ مُوَجَّهَةً إِلَى أَبْرَوِيزَ كِسْرَى فَارِسَ ، وَهِىَ الْمَمْلَكَةُ الَّتِى دَوَّخَتْ بِقُوَّةِ سُلْطَانِهَا الْمَمَالِكَ ، وَإِلَى هِرَقْلَ قَيْصَرِ الرُّومَانِ الَّذِى اسْتَطَاعَ بِمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ أَنْ يُسَيْطِرَ عَلَى الْكَثِيرِ مِمَّا كَانَ فى أَيْدِى الْفُرْسِ وَأَنْ يَنْتَزِعَهُ مِن تَحْتِ سَيْطَرَتِهِمْ ، وَإِلَى الْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ مِصْرَ ، وَإِلَى الْحَارِثِ الْغَسَّانِىِّ مَلِكِ الْحِيرَةِ ، وَالْحَارِثِ الْحِمْيَرِىِّ مَلِكِ الْيَمَنِ ، وَإِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ

مُلُوكِ وَرُؤَسَاءِ الأَقْطَارِ .

أَمَّا نَجَاشِيُّ الْحَبَشَةِ ، فَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ بِكِتَابَيْنِ ، يَطْلُبُ مِنْهُ فِى أَحَدِهِمَا الإِسْلاَمَ ، وَيَطْلُبُ فِى الآخَرِ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ بِالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ هَاجَرُوا إِلَى الْحَبَشَةِ فِى بَدْءِ الإِسْلاَمِ لاجِئِينَ إِلَيْهَا مِنْ ظُلْمِ قُرَيْشٍ ، وَأَنْ يَكُونَ وَكِيلاً عَنْهُ فِى زَوَاجِهِ مِنْ أُمِّ حَبِيبَةَ : رَمْلَةَ بِنْتِ أَبِى سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ الَّتِى كَانَتْ قَدْ أَسْلَمَتْ هِىَ وَزَوْجُهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ ، وَهَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ مَعَ الْمُهَاجِرِينَ ، ثُمَّ اعْتَنَقَ عَبْدُ اللهِ النَّصْرَانِيَّةَ بِالْحَبَشَةِ وَمَاتَ عَلَيْهَا ، وَظَلَّتْ أُمُّ حَبِيبَةَ عَلَى إِسْلاَمِهَا .

وَخَتَمَ مُحَمَّدٌ ﷺ الْكُتُبَ بِخَاتَمٍ مِنْ فِضَّةٍ نُقِشَ عَلَيْهِ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ .

وَانْطَلَقَ الرُّسُلُ الَّذِينَ تَخَيَّرَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْكُتُبِ الَّتِى بَعَثَهَا مَعَهُمْ . يَبْغُونَ الْبِلاَدَ الَّتِى أُرْسِلُوا إِلَيْهَا . وَبَقِىَ مُحَمَّدٌ ﷺ يُفَكِّرُ فِيمَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَأْتِىَ وَيَجِدَّ مِنْ وَرَاءِ هٰذِهِ الْخُطْوَةِ الَّتِى خَطَاهَا ...

لَقَدْ دَعَا كَثِيرًا مِنَ الْمُلُوكِ إِلَى الإِسْلامِ ... وَفِى هٰؤُلاءِ الْمُلُوكِ مَنْ هُوَ حَلِيمٌ رَحْبُ الصَّدْرِ كَنَجَاشِىِّ الْحَبَشَةِ ... وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ مُسْتَبِدٌّ طَاغٍ كَكِسْرَى فَارِسَ ، وَفِيهِمْ مَنْ سَوْفَ يَنْظُرُ إِلَى دَعْوَتِهِ بِمِنْظَارِ الْعَقْلِ وَالتَّرَوِّى ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَوْفَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِمِنْظَارِ التَّعَسُّفِ وَالْغَضَبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَيَتَّبِعُهُ أَوْ يَتْرُكُهُ وَشَأْنَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَيُحَاوِلُ التَّأْلِيبَ عَلَيْهِ لِمُحَارَبَتِهِ .

وَكَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ أَمِنَ خَطَرَ مَكَّةَ ، وَاتَّقَى شَرَّ عَدَاوَتِهَا بِمَا عَقَدَ مَعَهَا مِنْ عَهْدِ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَبِذٰلِكَ حَجَزَ عَنْ نَفْسِهِ شَرًّا كَانَ يَنْتَظِرُهُ مِنْهَا لَوْ حَاوَلَتْ مَمَالِكُ جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الَّتِى بَعَثَ يَدْعُوهَا لِلإِسْلامِ تَأْلِيبَ أَعْدَائِهِ عَلَيْهِ ، وَلٰكِنْ كَانَ هُنَاكَ مِنْ أَعْدَائِهِ فِى شِبْهِ الْجَزِيرَةِ يَهُودُ خَيْبَرَ الَّذِينَ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ كَثِيرُونَ مِنْ بَنِى قَيْنُقَاعَ وَبَنِى النَّضِيرِ الَّذِينَ أَجْلاهُمُ النَّبِىُّ عَنِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ هُنَاكَ يَهُودُ فَدَكَ وَتَيْمَاءَ وَغَيْرُهُمْ ؛ وَهٰؤُلاءِ جَمِيعًا بِلا شَكٍّ سَيَكُونُونَ خَيْرَ عَوْنٍ لِمَنْ يُرِيدُ قِتَالَهُ وَمُحَارَبَتَهُ لِلْقَضَاءِ عَلَى الإِسْلامِ ، وَعَزَمَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَى قِتَالِ يَهُودِ خَيْبَرَ الَّذِينَ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ الْفُرْصَةَ السَّانِحَةَ الَّتِى تُمَكِّنُهُمْ مِنَ النَّيْلِ مِنْهُ ،

وَالَّذِينَ كانُوا يَتيهُونَ بِقُوَّتِهِمْ وَمَنَاعَةِ حُصُونِهِمْ وَيَسْتَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : هَلْ يَسْتَطِيعُ مُحَمَّدٌ غَزْوَنَا وَقِتالَنَا ... ؟ ! هَيْهَاتَ ... ! هَيْهَاتَ ... !

وَنَادَى مُحَمَّدٌ : مَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَةَ فَلْيَخْرُجْ لِغَزْوَةِ خَيْبَرَ ، وَمَنْ خَرَجَ مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدْهَا يَكُنْ غَازِيًا مُتَطَوِّعًا لَيْسَ لَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ شَيْءٌ . وَلَبَّى الْمُتَطَوِّعُونَ النِّدَاءَ ، وَغَادَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ الْمَدِينَةَ فى أَلْفٍ وَسِتِّمائَةِ مُحَارِبٍ وَمِائَةِ فَارِسٍ ، وَسَارُوا إِلَى خَيْبَرَ .

وَبَيْنَما كَانَ الْمُزَارِعُونَ مِنْ يَهُودِ خَيبَرَ يَخْرُجُونَ إِلَى بَسَاتِينِهِمْ وَمَزَارِعِهِمْ ذَاتَ صَبَاحٍ يَحْمِلُونَ فُئُوسَهُمْ وَأَدَوَاتِ زِرَاعَتِهِمْ إِذْ بِهِمْ يُبْغَتُونَ بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَنْزِلُ بِهِمْ ، وَيُحِيطُ بِأَرَاضِيهِمْ .

وفَزِعَ الْمُزَارِعُونَ الْيَهُودُ ، وَتَوَلاَّهُمُ الرُّعْبُ ، وَكَرُّوا نَحْوَ دِيَارِهِمْ يَصِيحُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ : هٰذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَ وَالجَيْشُ مَعَهُ .

وَسَمِعَ مُحَمَّدٌ ﷺ صِيَاحَهُمْ وَإِنْذَارَهُمْ لِقَوْمِهِمْ فَقَالَ :

خَرِبَتْ خَيْبَرُ.

وَاجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الْيَهُودِ عَلَى عَجَلٍ يَضَعُونَ الْخِطَطَ لِمُوَاجَهَةِ هُجُومِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَشَارَ عَلَيْهِمْ زَعِيمُهُمْ سَلاَّمُ بْنُ مِشْكَمٍ، فَأَدْخَلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلاَدَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ فِى حِصْنٍ مِنْ حُصُونِهِمْ، وَأَدْخَلُوا ذَخَائِرَهُمْ فِى حِصْنٍ آخَرَ، وَدَخَلَ الْمُقَاتِلُونَ فِى حِصْنٍ ثَالِثٍ.

وَكَانَتْ قَبَائِلُ غَطَفَانَ مِنَ الْقَبَائِلِ الْمُوَالِيَةِ لِلْيَهُودِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا الْيَهُودُ يَسْأَلُونَهَا أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِنَجْدَةٍ تُسَاعِدُهُمْ عَلَى الْخَلاَصِ مِنْ مُحَمَّدٍ. وَلٰكِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ لِمِثْلِ هٰذَا الأَمْرِ عَلَى بَيِّنَةٍ وَحَذَرٍ، فَبَعَثَ إِلَى غَطَفَانَ يُمَنِّيهَا وَيَعِدُهَا حَظًّا مِنَ الْغَنَائِمِ إِنْ هِىَ انْصَرَفَتْ عَنْهُ وَخَلَّتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْيَهُودِ.

وَهٰكَذَا حَاصَرَ الْمُسْلِمُونَ حُصُونَ يَهُودِ خَيْبَرَ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُغَادَرَتِهَا لِمُبَاشَرَةِ زِرَاعَاتِهِمْ وَثِمَارِهِمْ.

وَاسْتَمَاتَ الْيَهُودُ فِى الدِّفَاعِ عَنْ كِيَانِهِمْ، وَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَى حِصَارِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ، بَلْ قَاتَلُوهُمْ مُنْذُ أَوَّلِ يَوْمٍ قِتَالاً شَدِيدًا حَتَّى بَلَغَ عَدَدُ جَرْحَى

الْمُسْلِمِينَ فِيهِ خَمْسِينَ جَرِيحًا .

وَاسْتَمَرَّ الْقِتَالُ ، وَمَرَّتِ الأَيَّامُ ، وَالْيَهُودُ عَلَى مَاهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الاسْتِمَاتَةِ فِى الدِّفَاعِ عَنْ حُصُونِهِمْ بِالسِّهَامِ وَالنِّبَالِ ، وَكَانُوا تَارَةً يَرْجُمُونَهُمْ بِالأَحْجَارِ ، وَتَارَةً يَخْرُجُونَ إِلَيْهِمْ يُقَاتِلُونَهُمْ وَيُنَازِلُونَهُمْ وَجْهًا لِوَجْهٍ ، ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى حُصُونِهِمْ ، يَتَحَصَّنُونَ بِهَا .

وَمَاتَ سَلاَّمُ بْنُ مِشْكَمٍ . وَتَوَلَّى قِيَادَةَ الْيَهُودِ مِنْ بَعْدِهِ الْحَارِثُ بْنُ أَبِى زَيْنَبَ .

وَخَرَجَ الْحَارِثُ يَبْغِى مُنَازَلَةَ الْمُسْلِمِينَ وَجْهًا لِوَجْهٍ ، وَلٰكِنَّ الْمُسْلِمِينَ رَدُّوهُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَأَلْجَئُوهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى التَّحَرُّزِ بِالْحِصْنِ مِنْ جَدِيدٍ .

وَلٰكِنْ كَانَ لاَبُدَّ لِلرَّسُولِ مِنْ أَنْ يَتَّخِذَ مِنَ الإِجْرَاءَاتِ مَا يَكْفُلُ سُرْعَةَ فَتْحِ الْحُصُونِ ، فَإِنَّ طُولَ الْحِصَارِ عَلَيْهَا - وَإِنْ كَانَ فِيهِ ضِيقٌ وَتَهْدِيدٌ لِمَنْ فِيهَا بِالْعَطَشِ وَالْجُوعِ - فِيهِ كَذٰلِكَ مِثْلُ هٰذَا الضِّيقِ وَمِثْلُ هٰذَا التَّهْدِيدِ لِلْمُحَاصِرِينَ ، فَالْمُسْلِمُونَ عُرْضَةٌ لأَنْ يَعْطَشُوا ، وَعُرْضَةٌ لأَنْ يَجُوعُوا .

وَبَعَثَ الرَّسُولُ أَبَا بَكْرٍ بِرَايَةٍ مِنْ رَايَاتِ الْمُسْلِمِينَ لِفَتْحِ الحِصْنِ الَّذِى يَجْتَمِعُ فِيهِ الْمُقَاتِلُونَ ، فَقَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ يَوْمَهُ هٰذَا ثُمَّ عَادَ إِلَى أَصْحَابِهِ دُونَ أَنْ يُفْتَحَ أَمَامَهُ الْحِصْنُ .

وَبَعَثَ الرَّسُولُ ﷺ فِى الْيَوْمِ الثَّانِى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، فَقَاتَلَ يَوْمَهُ كَذٰلِكَ ثُمَّ عَادَ إِلَى أَصْحَابِهِ دُونَ أَنْ يُفْتَحَ أَمَامَهُ الْحِصْنُ .

وَفِى الْيَوْمِ الثَّالِثِ دَعَا الرَّسُولُ ﷺ عَلِىَّ بْنَ أَبِى طَالِبٍ وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ وَقَالَ لَهُ :

خُذْ هٰذِهِ الرَّايَةَ فَامْضِ بِهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ .

وَمَضَى عَلِىٌّ بِالرَّايَةِ ، حَتَّى إِذَا مَادَنَا مِنَ الْحِصْنِ ، خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهُ فَقَاتَلَهُمْ ، فَضَرَبَهُ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَطَاحَ تُرْسُهُ مِنْ يَدِهِ ، فَتَنَاوَلَ عَلِىٌّ بَابًا كَانَ عِنْدَ الْحِصْنِ فَتَتَرَّسَ بِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلُ وَالْبَابُ فِى يَدِهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الْحِصْنَ ، بَعْدَ أَنْ قَتَلَ فِى هٰذِهِ الْمَعْرَكَةِ قَائِدَ الْحِصْنِ الْحَارِثَ بْنَ أَبِى زَيْنَبَ .

وَاتَّخَذَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْبَابِ الَّذِى تَتَرَّسَ بِهِ عَلِىٌّ قَنْطَرَةً عَبَرُوا عَلَيْهَا إِلَى دَاخِلِ الْحِصْنِ فَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ وَعَلَى مَافِيهِ مِنْ أَسْلِحَةٍ وَعَتَادٍ .

وَانْتَقَلَ الْمُحَارِبُونَ الْيَهُودُ إِلَى حِصْنٍ آخَرَ مِنْ حُصُونِهِمْ يُقَاتِلُونَ مِنْهُ الْمُسْلِمِينَ .

وَخَرَجَ مُحَارِبٌ مِنْهُمُ اسْمُهُ مَرْحَبٌ ، عُرِفَ بِالشَّجَاعَةِ ، وَقُوَّةِ الْبَأْسِ ، وَقَدْ تَسَلَّحَ بِكَامِلِ سِلاحِهِ ، وَدَعَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُبَارَزَتِهِ وَمُنَاجَزَتِهِ . فَلَمَّا رَأَى الرَّسُولُ ﷺ مِنْهُ ذٰلِكَ ، قَالَ لأَصْحَابِهِ : مَنْ مِنْكُمْ لِهٰذَا ؟

فَبَرَزَ مِنْ بَيْنِ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ يَقُولُ :

أَنَا لَهُ يَارَسُولَ اللهِ ، أَنَا وَاللهِ الْمَوْتُورُ الثَّائِرُ الَّذِى قُتِلَ أَخُوهُ بِالأَمْسِ .

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ : فَقُمْ إِلَيْهِ .

ثُمَّ دَعَا الرَّسُولُ لابْنِ مَسْلَمَةَ بِقَوْلِهِ : اللَّهُمَّ أَعِنْهُ عَلَيْهِ .

وَكَانَ أَخُو مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ قَدْ أَلْقَى عَلَيْهِ الْيَهُودُ بِحَجَرِ رَحًى وَهُوَ جَالِسٌ فِى ظِلِّ حِصْنٍ مِنْ حُصُونِهِمْ يَسْتَرِيحُ مِنْ عَنَاءِ الْقِتَالِ ، فَكَانَ أَنْ كَشَطَتِ

الْقَلَنْسُوَةُ الْحَدِيدِيَّةُ الَّتِى كَانَ يَلْبَسُهَا فَوْقَ رَأْسِهِ لَحْمَ وَجْهِهِ ، وَجَحَظَتْ عَيْنُهُ ، وَكَانَ أَنْ مَاتَ بَعْدَ إِصَابَتِهِ بِهٰذِهِ الإِصَابَةِ بِقَلِيلٍ .

وَأَسْرَعَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ لِلِقَاءِ مَرْحَبٍ ، وَكُلُّهُ شَوْقٌ إِلَى الأَخْذِ بِثَأْرِ أَخِيهِ وَالْقِصَاصِ لَهُ .

وَالْتَقَى الرَّجُلانِ بِمَكَانٍ قَامَتْ بَيْنَهُمَا فِيهِ شَجَرَةٌ صَغِيرَةُ الْحَجْمِ ، رَفِيعَةُ الأَغْصَانِ ، اتَّخَذَ الْمُتَحَارِبَانِ مِنْهَا دِرْعًا . وَمَازَالا يُحَارِبَانِ خِلاَلَ أَغْصَانِهَا حَتَّى أَطَاحَا بِأَفْنَانِهَا جَمِيعًا ، وَبَقِيَتِ السَّاقُ قَائِمَةً وَحْدَهَا بَيْنَهُمَا .

وَانْقَضَّ مَرْحَبٌ بِسَيْفِهِ عَلَى ابْنِ مَسْلَمَةَ يُرِيدُ مِنْهُ مَقْتَلا ، فَاتَّقَى ابْنُ مَسْلَمَةَ الضَّرْبَةَ سَرِيعًا بِتُرْسِهِ فَانْغَرَسَ السِّلاحُ بِالتُّرْسِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ مَرْحَبٌ تَخْلِيصَ سِلاحِهِ ، فَضَرَبَهُ ابْنُ مَسْلَمَةَ فَقَضَى عَلَيْهِ .

عِنْدَئِذٍ بَرَزَ مِنْ حِصْنِ الْيَهُودِ أَخٌ لِمَرْحَبٍ - اسْمُهُ يَاسِرٌ - يَدْعُو مَنْ يُبَارِزُهُ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ - ابْنُ عَمَّةِ الرَّسُولِ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - وَكَانَتْ صَفِيَّةُ فِيمَنْ صَحِبَ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ

النِّسَاءِ ، فَتَقَدَّمَتْ مِنَ الرَّسُولِ تَقُولُ ، وَقَدْ خَشِيَتْ عَلَى ابْنِهَا بَأْسَ يَاسِرٍ :

يَقْتُلُ ابْنِى يَارَسُولَ اللهِ ... ! !

فَأَجَابَهَا الرَّسُولُ ﷺ بِلَهْجَةِ الثِّقَةِ : بَلِ ابْنُكِ يَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ .

وَهٰكَذَا كَانَ ، وَقَتَلَ الزُّبَيْرُ يَاسِرًا الْيَهُودِىَّ ، فَلَحِقَ بِأَخِيهِ مَرْحَبٍ .

وَهٰكَذَا اسْتَمَرَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ قَاسِيَةً أَشَدَّ الْقَسْوَةِ ، عَنِيفَةً أَشَدَّ الْعُنْفِ ، لا يَتَخَلَّى الْيَهُودُ لِلْمُسْلِمِينَ عَنْ حِصْنٍ مِنْ حُصُونِهِمْ إِلا بَعْدَ أَنْ يُدَافِعُوا عَنْهُ أَعْظَمَ دِفَاعٍ ، وَلا يُفَرِّطُونَ فى شِبْرٍ مِنْ أَرْضِهِمْ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يُقَاتِلُوا دُونَهُ أَبْرَعَ قِتَالٍ .

وَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ قَاسَى الْمُسْلِمُونَ – مِنْ طُولِ الْحِصَارِ ، وَمِنْ تَعَرُّضِهِمْ لِلْجُوعِ – الأَمَرَّيْنِ ، فَشَكَوْا قِلَّةَ زَادِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ، فَسَمَحَ لَهُمْ بِأَكْلِ لَحْمِ الْخَيْلِ .

وَاسْتَطَاعَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمًا أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى قَطِيعِ حَمِيرٍ مِنْ حُمُرِ الْيَهُودِ ، فَقَامُوا بِذَبْحِهِ وَتَقْطِيعِهِ وَأَوْقَدُوا النَّارَ ؛ وَنَصَبُوا مِنْ فَوْقِهَا الْقُدُورَ لِطَهْيِهِ ؛ فَمَرَّ

بِهِمُ الرَّسُولُ ﷺ وَهُمْ يَطْهُونَ لَحْمَ الحُمُرِ فَسَأَلَهُمْ : مَا الَّذِى تَطْهُونَ ؟ ! .

أَجَابُوا : لَحْمَ حَمِيرٍ .

فَنَهَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ أَكْلِهَا ، وَأَمَرَهُمْ بِسَكْبِ الْقُدُورِ وَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ لُحُومَ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ لا تَحِلُّ لَكُمْ .

وَاسْتَطَاعَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمًا أَنْ يَحْصُلوا عَلَى شَاتَيْنِ مِنْ شِيَاهِ الْيَهُودِ ، فَكَانَ لَهُمْ مِنْهُمَا فى هٰذَا الْيَوْمِ وَلِيمَةٌ عَظِيمَةٌ برَغْم قِلَّةِ لَحْمِ الشَّاتَيْنِ بِالنِّسْبَةِ لِكَثْرَةِ عَدَدِ الآكِلِينَ .

وَفِى هٰذِهِ الآونَةِ أَتَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ حَبَشِىٌّ كَانَ يَعْمَلُ رَاعِيًا أَجِيرًا لأَغْنَامِ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ وَمَعَهُ الأَغْنَامُ الَّتِى يَرْعَاهَا وَقَالَ لِلرَّسُولِ :

يَا رَسُولَ اللهِ ، لَقَدْ تَفَتَّحَ قَلْبِى لِلإِسْلامِ فَاعْرِضْهُ عَلَىَّ .

فَعَرَضَ عَلَيْهِ النَّبِىُّ الإِسْلامَ فَأَسْلَمَ ، وَشَهِدَ بِالشَّهَادَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ :

يَارَسُولَ اللهِ ، إِنِّى كُنْتُ أَجِيرًا لِصَاحِبِ هٰذِهِ الأَغْنَامِ ، وَهِىَ أَمَانَةٌ لَهُ عِنْدِى ، فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِهَا ؟

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ : اضْرِبْ فى وَجْهِهَا ، وَهُشَّ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهَا سَتَرْجِعُ إِلَى صَاحِبِهَا بِإِذْنِ اللهِ .

فَقَامَ الرَّجُلُ إِلَى الشِّيَاهِ يَهُشُّ عَلَيْهَا ، وَيَضْرِبُ فى وَجْهِهَا بِالْحَصَى ، وَهُوَ يَقُولُ :

ارْجِعِى إِلَى صَاحِبِكِ . فَوَاللهِ لا أَصْحَبُكِ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمْتُ أَبَدًا .

فَوَلَّتِ الشِّيَاهُ حَتَّى دَخَلَتْ إِلَى حِصْنٍ مِنْ حُصُونِ الْيَهُودِ .

وَتَقَدَّمَ الرَّجُلُ الرَّاعِى مَعَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُ أَهْلَ الْحِصْنِ مِنَ الْيَهُودِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصَابَهُ مِنْهُمْ حَجَرٌ فَقَتَلَهُ . فَحَمَلَهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَوَضَعُوهُ خَلْفَهُ ، وَغَطَّوْهُ بِبَعْضِ ثِيَابِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ : يَارَسُولَ اللهِ ، لَقَدْ قُتِلَ وَلَمْ يَسْجُدْ للهِ سَجْدَةً .. ! فَكَيْفَ هُوَ فى الْمُسْلِمِينَ ؟ !

فَأَجَابَ الرَّسُولُ ﷺ : هُوَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَبِجَانِبِهِ الآنَ حَوْرَاوَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ تَنْفُضَانِ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ وَتَقُولاَنِ لَهُ : تَرَّبَ اللهُ وَجْهَ مَنْ تَرَّبَ وَجْهَكَ ، وَقَتَلَ مَنْ قَتَلَكَ !

وَلَمْ تَدُمْ حَالَةُ الْمَجَاعَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ طَوِيلاً ، إِذْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِفَتْحِ حِصْنٍ مِنَ الْحُصُونِ الَّتِى كَانَ يَدَّخِرُ بِهَا الْيَهُودُ طَعَامَهُمْ . وَيَخْتَزِنُونَ فِيهَا غِذَاءَهُمْ ، وَيَحْتَفِظُونَ بِكَمِّيَاتٍ كَبِيرَةٍ مِنْ مَوَادِّ التَّمْوِينِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَنَالَ الْمُسْلِمُونَ بِذٰلِكَ مِنَ الطَّعَامِ وَالْغِذَاءِ مَا كَفَّاهُمْ وَسَدَّ حَاجَتَهُمْ .

وَبِذٰلِكَ تَحَسَّنَتْ رُوحُ الْمُسْلِمِينَ الْمَعْنَوِيَّةُ ، وَقَوِيَتْ نَفْسِيَّتُهُمْ ، وَصَارَ لَدَيْهِمْ مِنَ الْعَزْمِ وَالْقُوَّةِ وَالْجَلَدِ مَا أَعَانَهُمْ عَلَى طُولِ الْحِصَارِ ، وَشِدَّةِ الْقِتَالِ .

وَسَقَطَتْ حُصُونُ الْيَهُودِ أَمَامَ هُجُومِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَمَامَهُمْ طَوِيلاً بَعْدَ ذٰلِكَ إِلا قَلْعَةُ الزُّبَيْرِ ، مِمَّا دَعَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى تَحْوِيلِ مَجْرَى الْمَاءِ الَّذِى يَرْتَوِى مِنْهُ أَهْلُهَا عَنْهَا ، وَبِذٰلِكَ اضْطُرَّ مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُقَاتِلِينَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا لِقِتَالِ مُحَاصِرِيهَا ، وَمِنْ ثَمَّةَ فُتِحَتْ هِىَ الأُخْرَى ، إِذْ كَانَتِ الْغَلَبَةُ فِى جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ .

وَظَلَّ النَّبِىُّ ﷺ يُحَمِّسُ أَصْحَابَهُ وَيُشَجِّعُهُمْ عَلَى الْجِهَادِ فِى سَبِيلِ اللهِ

وَهُوَ قَائِمٌ بَيْنَهُمْ عَلَى فَرَسِهِ الظَّرِبِ ، وَعَلَيْهِ دِرْعَانِ ، وَقَدْ وَقَى رَأْسَهُ وَوَجْهَهُ بِوِقَاءَيْنِ : هُمَا الْبَيْضَةُ وَالْمِغْفَرُ ، حَتَّى فُتِحَتْ أَكْثَرُ حُصُونِ الْيَهُودِ ، وَوَقَعَ كَثِيرٌ مِنْ نِسَائِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ أَسْرَى فِى أَيْدِى الْمُسْلِمِينَ .

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَجِدِ الْيَهُودُ أَمَامَهُمْ إِلا أَنْ يَعْرِضُوا الصُّلْحَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ حَقْنًا لِدِمَائِهِمْ وَاسْتِبْقَاءً لِبَعْضِ أَمْوَالِهِمْ ، فَأَرْسَلُوا إِلَى مُحَمَّدٍ وَفْدًا مِنْهُمْ عَلَى رَأْسِهِ كِنَانَةُ بْنُ أَبِى الْحُقَيْقِ يُفَاوِضُهُ فِى ذٰلِكَ .

وَقَبِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ الصُّلْحَ عَلَى أَنْ يُبْقِيَهُمْ عَلَى أَرْضِهِمُ الَّتِى آلَتْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ بِحُكْمِ الْفَتْحِ عَلَى أَنْ يَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ نِصْفُ ثِمَارِهَا ، وَلِلْيَهُودِ النِّصْفُ نَظِيرَ عَمَلِهِمْ فِيهَا .

وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ عَتَادِ الْيَهُودِ وَسِلاحِهِمُ الشَّىْءَ الْكَثِيرَ ، أَمَّا أَمْوالُهُمْ وَذَهَبُهُمُ اللَّذَانِ حَمَلَهُمَا بَنُو قَيْنُقَاعَ وَبَنُو النَّضِيرِ مَعَهُمَا عِنْدَ مُغَادَرَتِهِمُ الْمَدِينَةَ . فَلَمْ يَعْثُرْ لَهُمَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَثَرٍ . فَلَمَّا سَأَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ كِنَانَةَ عَنْهُمَا ، أَجَابَهُ :

يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، أَنْفَقْنَاهُمَا فى حَرْبِنَا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمَا شَىْءٌ .

ثُمَّ أَقْسَمَ لِلنَّبِى بِاللهِ عَلَى صِحَّةِ مَايَقُولُ !

فَقَالَ النَّبِىُّ : بَرِئَتْ مِنْكُمْ ذِمَّةُ اللهِ ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ إِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ شَىْءٌ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وذَهَبِكُمْ ؟

فَأَجَابَ كِنَانَةُ : نَعَمْ .

عِنْدَئِذٍ أَشْهَدَ النَّبِىُّ ﷺ عَلَى هٰذَا طَائِفَةً مِنَ الْيَهُودِ وَطَائِفَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ أَمَرَ بِالْبَحْثِ عَنْ أَمْوَالِ الْيَهُودِ وَذَهَبِهِمُ اللَّذَيْنِ أَنْكَرَ كِنَانَةُ وُجُودَهُمَا ، وَأَقْسَمَ عَلَيْهِ .

وَتَوَلَّى بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِىِّ اسْتِجْوَابَ الْيَهُودِ الْمُتَّصِلِينَ بِكِنَانَةَ ، فَاعْتَرَفَ أَحَدُهُمْ بِأَنَّهُ رَأَى كِنَانَةَ يَطُوفُ بِإِحْدَى خَرَائِبِ خَيْبَرَ . عِنْدَ ذَاكَ رَجَّحَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ أَمْوَالَ الْيَهُودِ لابُدَّ أَنْ تَكُونَ فى بَعْضِ هٰذِهِ الْخَرِبَاتِ .

وَعَلَى هٰذَا أَمَرَ النَّبِىُّ ﷺ بِتَفْتِيشِها وَبِتَنْقِيبِ أَرْضِهَا .

وَفُتِّشَتِ الْخَرِبَاتُ وَنُقِّبَتْ أَرْضُهَا ، فَعُثِرَ فِيهَا عَلَى جِرَابٍ مِنْ جِلْدٍ جَمِيلٍ ،

خُبِّىءَ فِيهِ كَنْزٌ مِنْ حُلِىِّ الْيَهُودِ .

وَاسْتُخْرِجَتْ هٰذِهِ الْحُلِىُّ ، وَوَاجَهَ النَّبِى ﷺ بِهَا كِنَانَةَ فَاعْتَرَفَ ، وَبِذٰلِكَ حَلَّ دَمُهُ لِلْمُسْلِمِينَ فَقَتَلُوهُ .

وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ حُصُونَ الْيَهُودِ يَسْتَخْرِجُونَ مَا بِهَا . وَلٰكِنَّ النَّبِىَّ ﷺ نَادَى فِيهِمْ أَنْ :

كُلُوا ، وَاعْلِفُوا دَوَابَّكُمْ ، وَلا تَحْمِلُوا .

وَبِذٰلِكَ كَفَّ الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنْ زَادِ الْيَهُودِ ، إِلا مَا كَانُوا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لِطَعَامِهِمْ وَطَعَامِ دَوَابِّهِمْ إِطَاعَةً لأَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ .

وَعَامَلَ الرَّسُولُ الْيَهُودَ بِرِفْقٍ بَعْدَ اسْتِسْلامِهِمْ ، فَرَدَّ إِلَيْهِمْ صَحَائِفَ مِنَ التَّوْرَاةِ كَانَتْ فِيمَا غَنِمَ الْمُسْلِمُونَ .

وَكَرَّمَ صَفِيَّةَ ابْنَةَ زَعِيمِهِمُ السَّابِقِ حُيَىِّ بْنِ أَخْطَبَ وَزَوْجَ كِنَانَةَ بْنِ أَبِى الْحُقَيْقِ بِأَنْ رَفَعَهَا مِنَ السَّبْىِ إِلَى مَصَافِّ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَذٰلِكَ أَنَّ دِحْيَةَ الْكَلْبِىَّ كَانَ قَدْ أَخَذَ صَفِيَّةَ مِنَ السَّبَايَا لِنَفْسِهِ ، فَأَتَى رَجُلٌ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ :

يَارَسُولَ اللهِ ، أَتعْطِى دِحْيَةَ صَفِيَّةَ سَيِّدَةَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ .. !! وَهِىَ لا تَصْلُحُ إِلا لَكَ .. !

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ : أُدْعُوهُ نُعْطِهِ غَيْرَهَا .

ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ بِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَىّ . فَأَتَى بِهَا بِلالٌ وَبابْنَةِ عَمٍّ لَهَا ، وَمَرَّ بِهِمَا فِى مَجِيئِهِ عَلَى جُثَثِ قَتْلَى الْيَهُودِ وَأَشْلائِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَتْ صَفِيَّةُ وَابْنَةُ عَمِّهَا قَتْلاهُمَا بَكَتْ صَفِيَّةُ وَصَرَخَتِ ابْنَةُ عَمِّهَا ، وَصَاحَتْ صِيَاحًا شَدِيدًا . فَكَرِهَ الرَّسُولُ ﷺ فِعْلَ بِلالٍ هٰذَا وَاسْتَنْكَرَهُ وَقَالَ لَهُ :

أَنُزِعَتْ مِنْكَ الرَّحْمَةُ يَا بِلالُ ... ! حَتَّى تَمُرَّ بِامْرَأَتَيْنِ عَلَى قَتْلَى رِجَالِهِمَا ؟ ! .

فَقَالَ بِلالٌ مُعْتَذِرًا : يَا رسُولَ اللهِ ؛ مَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَكْرَهُ ذٰلِكَ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ تَرَيَا مَصَارِعَ قَوْمِهِمَا !

فَأَعْطَى النَّبِىُّ ﷺ ابْنَةَ عَمِّ صَفِيَّةَ إِلَى دِحْيَةَ ، وَأَعْتَقَ صَفِيَّةَ وَتَزَوَّجَهَا بَعْدَ

أَنْ أَسلمتْ .

وَلٰكِنَّ رِفْقَ النَّبِىِّ ﷺ بِالْيَهُودِ لَمْ يُنْسِهِمْ زَوَالَ سُلْطَانِهِمْ ، وَلا مَاحَلَّ بِهِمْ ، فَكَانُوا فى قَرَارَةِ نُفُوسِهِمْ يُضْمِرُونَ لَهُ الشَّرَّ ، وَيَتَمَنَّوْنَ لَهُ الضَّرَّ ؛ وَكَانَ الْمَثَلُ فى ذٰلِكَ مَا أَتَتْهُ إِحْدَى نِسَائِهِمْ زَيْنَبُ بِنْتُ الْحَارِثِ أُخْتُ مَرْحَبٍ . إِذْ أَتَتْ إِلَى رَحْلِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَعَهَا شَاةٌ مَشْوِيَّةٌ قَدَّمَتْهَا لِمُحَمَّدٍ هَدِيَّةً .

وَأَمَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ فَوُضِعَتِ الشَّاةُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَدَعَا أَصْحَابَهُ إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِيهَا . ومَدَّ الرَّسُولُ ﷺ يَدَهُ فَأَخَذَ قِطْعَةً مِنْ ذِرَاعِ الشَّاةِ ، وَكَانَ لا يُحِبُّ مِنَ اللَّحْمِ إِلا مَاكَانَ مِن الذِّرَاعِ ؛ ثمَّ وَضَعَهَا فى فَمِهِ وَلاكَهَا ، وَفَجْأَةً أَشَارَ لأَصْحَابِهِ أَنْ يَكُفُّوا عَنِ الأَكْلِ قَائِلاً :

كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، فَإِنَّ هٰذِهِ الذِّرَاعَ تُخْبِرُنِى أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ !

عِنْدَئِذٍ قَالَ بِشْرُ بْنُ بَرَاءٍ - وَكَانَ قَدْ أَخَذَ هُوَ الآخَرُ قِطْعَةً مِنَ الذِّرَاعِ وَازْدَرَدَهَا :

وَاللهِ - يَارَسُولَ اللهِ - وَجَدْتُ ذٰلِكَ فى قِطْعَةِ اللَّحْمِ الَّتِى أَكَلْتُ ،

وَما مَنَعَنِى أَنْ أَلْفِظَهَا إلا كَرَاهِيَةَ أَنْ أُنَغِّصَ طَعَامَكَ .

فَأَمَرَ النَّبِىُّ ﷺ بِاسْتِدْعَاءِ زَيْنَبَ ، فَلَمَّا جَاءَتْ ، سَأَلَهَا غَاضِبًا :

أَسَمَّمْتِ الذِّرَاعَ ؟ ! قَالَتْ : مَنْ أَخْبَرَكَ ؟ !

قَالَ : لَحْمُ الذِّرَاعِ ! قَالَتْ : نَعَمْ .

قَالَ : وَمَا حَمَلَكِ عَلَى ذٰلِكَ ؟

قَالَتْ : قَتَلْتَ أَبِى وَعَمِّى وَزَوْجِى ، وَنِلْتَ مِنْ قَوْمِى مَانِلْتَ ، فَقُلْتُ : إِنْ كَانَ نَبِيًّا فَسَتُخْبِرُهُ الشَّاةُ ، وَإِنْ كَانَ مَلِكًا اسْتَرَحْنَا مِنْهُ !

فَعَفَا عَنْهَا النَّبِىُّ وَأَمَرَ بِإِطْلَاقِ سَرَاحِهَا . إلا أَنَّ بِشْرًا لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَغَيَّرَ حَالُهُ وَسُرْعَانَ مَامَاتَ .

وَلَمَّا أَرَادَ النَّبِىُّ ﷺ مُغَادَرَةَ خَيْبَرَ أَوْصَى مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ بِالْيَهُودِ خَيْرًا ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتْرُكَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ ، وَأَلَا يَفْتِنَهُمْ فِى يَهُودِيَّتِهِمْ .

وَسَارَ النَّبِىُّ ﷺ إِلَى يَهُودِ وَادِى الْقُرَى ، فَتَجَهَّزُوا لِقِتَالِهِ ، وَقَاتَلُوهُ . إلا أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ عَرَضُوا الصُّلْحَ كَمَا فَعَلَتْ خَيْبَرُ مِنْ قَبْلُ .

أَمَّا يَهُودُ فَدَكَ فَإِنَّ الرُّعْبَ كَانَ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ وَمَلأَ أَفْئِدَتَهُمْ لِمَا وَصَلَ إِلَى سَمْعِهِمْ مِنْ أَخْبَارِ خَيْبَرَ ؛ فَمَا كَادَ النَّبِىُّ ﷺ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرِسَالَتِهِ أَوْ أَنْ يُسَلِّمُوا أَمْوَالَهُمْ ، حَتَّى أَرْسَلُوا إِلَى النَّبِىِّ ﷺ وَفْدًا مِنْهُمْ يَعْرِضُ الصُّلْحَ عَلَى نِصْفِ أَمْوَالِهِمْ . أَمَّا يَهُودُ تَيْمَاءَ فَقَدْ قَبِلُوا الْجِزْيَةَ الَّتِى فَرَضَهَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمْ دُونَ حَرْبٍ أَوْ قِتَالٍ .

وَمِنْ ثَمَّةَ دَانَ يَهُودُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ لِسُلْطَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَأَمِنَ مُحَمَّدٌ شَرَّهُمْ بَعْدَ أَنْ أَخْضَعَهُمْ وَأَزَالَ قُوَّتَهُمْ .

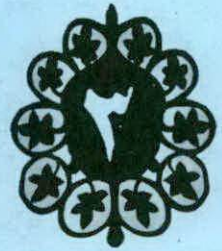

كَانَ أَكْثَرُ أَبْنَاءِ قُرَيْشٍ حِينَ مَسِيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ ، لا يَشُكُّونَ فى ٱنْكِسَارِهِ وَهَزِيمَتِهِ أَمَامَ الْيَهُودِ . فَقَدْ كَانُوا يَعْلَمُونَ قُوَّةَ يَهُودِ خَيْبَرَ ، وَيَعْرِفُونَ مَنَاعَةَ حُصُونِهِمْ ، وَيُقَدِّرُونَ حِرْصَهُمْ عَلَى مَا يَمْلِكُونَ مِنْ مَالٍ كَثِيرٍ وَزَرْعٍ نَضِيرٍ ، وَيُوقِنُونَ أَنَّ دِفَاعَ الْيَهُودِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ هُوَ دِفَاعُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ . لِذٰلِكَ كَانُوا يَتَرَقَّبُونَ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الأَخْبَارُ بِمَا تُسَرُّ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَتَثْلَجُ بِهِ صُدُورُهُمْ وَبَلَغَ مِنْ إِيمَانِهِمْ بِمَا سَوْفَ يَنَالُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ ٱنْكِسَارٍ

وَهَزِيمَةٍ ، أَنْ كَانُوا يُقْدِمُونَ عَلَى الرِّهَانِ بِمَا قِيمَتُهُ مِائَةُ بَعِيرٍ مَعَ الْقِلَّةِ مِنْ أَبْنَاءِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ كَانُوا يُرَجِّحُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا سَيَنْتَصِرُ .

ثُمَّ أَتَى الْخَبَرُ قُرَيْشًا .

وَكَانَ أَوَّلُ مَا أَتَاهَا . أَنَّ الْحَجَّاجَ بْنَ عِلاطٍ السُّلَمِيَّ كَانَ قَدْ أَتَى إِلَى الرَّسُولِ بِخَيْبَرَ فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ . وَكَانَ لِلْحَجَّاجِ بِمَكَّةَ زَوْجَةٌ وَأَمْوَالٌ . فَخَافَ إِنْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِإِسْلامِهِ أَنْ تَمْنَعَ عَنْهُ أَمْوَالَهُ . فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَخْلِصَ أَمْوَالَهُ مِنْهَا بِحِيلَةٍ ، فَذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ أَنِ انْتَصَرَ عَلَى أَهْلِ خَيْبَرَ ، وَقَالَ لَهُ :

يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إِنَّ لِي بِمَكَّةَ مَالاً عِنْدَ امْرَأَتِي أُمِّ شَيْبَةَ بِنْتِ أَبِي طَلْحَةَ ، وَمَالاً مُتَفَرِّقًا فِي تُجَّارِ مَكَّةَ ، فَأْذَنْ لِي بِأَنْ أَحْتَالَ فِي جَمْعِهِ .

فَأَذِنَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ فِي ذٰلِكَ قَائِلاً لَهُ : قُلْ مَاشِئْتَ..

فَخَرَجَ الْحَجَّاجُ مِنْ خَيْبَرَ قَاصِدًا مَكَّةَ . فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهَا الْتَقَى بِجَمَاعَةٍ مِنْ أَبْنَائِهَا قَدْ خَرَجُوا يَعْتَرِضُونَ طَرِيقَ الْمَارِّينَ وَالْمُسَافِرِينَ يَتَنَسَّمُونَ أَخْبَارَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَلَمَّا أَبْصَرُوا بِهِ صَاحُوا عَلَيْهِ :

هَاهُوَ الحَجَّاجُ بْنُ عِلاطٍ ، إِنَّ عِنْدَهُ الْخَبَرَ عَنْ مُحَمَّدٍ !

ثُمَّ الْتَفُّوا مِنْ حَوْلِهِ يَسْأَلُونَهُ أَخْبَارَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَهُمْ لا يَعْلَمُونَ بِإِسْلامِهِ ، فَقَالَ لَهُمُ الْحَجَّاجُ :

إِنَّ عِنْدِى مِنَ الْخَبَرِ عَنْ مُحَمَّدٍ مَا يُفْرِحُكُمْ وَيَسُرُّكُمْ .

فَتَشَبَّثَ الْجَمْعُ بِنَاقَةِ الْحَجَّاجِ يَمْنَعُونَهُ الْمَسِيرَ حَتَّى يُخْبِرَهُمْ خَبَرَ مُحَمَّدٍ وَهُمْ يَقُولُونَ :

إِيهِ يَا حَجَّاجُ ... ! !

فَقَالَ الْحَجَّاجُ : هُزِمَ هَزِيمَةً لَمْ تَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا قَطُّ ، وَقُتِلَ أَصْحَابُهُ قَتْلاً لَمْ تَسْمَعُوا بِمِثْلِهِ أَبَدًا ، وَأُسِرَ مُحَمَّدٌ أَسْرًا ، وَقَالَ الْيَهُودُ لا نَقْتُلُهُ حَتَّى نَبْعَثَ بِهِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، فَيَقْتُلُونَهُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَصَابَ مِنْ رِجَالِهِمْ .

فَتَصَايَحَ الرِّجَالُ فَرِحِينَ مُهَلِّلِينَ مِنْ حَوْلِ الْحَجَّاجِ ، وَمِنْ ثَمَّةَ سَارُوا مَعَهُ حَتَّى دَخَلُوا مَكَّةَ يَزُفُّونَ الْخَبَرَ إِلَى أَهْلِهَا قَائِلِينَ :

قَدْ جَاءَكُمْ خَبَرُ مُحَمَّدٍ الَّذِى كُنَّا نَنْتَظِرُ ، وَالآنَ سَيَكُونُ انْتِظَارُكُمْ لِمَقْدَمِهِ

حَيْثُ يُقْتَلُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ !

وَسَارَعَ أَهْلُ مَكَّةَ إِلَى الْحَجَّاجِ يَسْتَوْثِقُونَ الْخَبَرَ ، وَهُوَ يُؤَكِّدُهُ لَهُمْ وَيَقُولُ :

يَا صِحَابُ ، أَعِينُونِى عَلَى جَمْعِ مَالِى بِمَكَّةَ ، فَإِنِّى أُرِيدُ أَنْ أَقْدُمَ خَيْبَرَ فَأُصِيبَ مِنْ هَزِيمَةِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَنِى التُّجَّارُ إِلَى مَا هُنَالِكَ .

فَأَسْرَعَ أَهْلُ مَكَّةَ يَسْتَخْلِصُونَ لِلْحَجَّاجِ أَمْوَالَهُ بِكُلِّ هِمَّةٍ وَنَشَاطٍ .

وَوَصَلَ خَبَرُ مَا قَالَ الْحَجَّاجُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَاغْتَمَّتْ لِذٰلِكَ نَفْسُهُ ، وَلَمْ يَمْلِكْ إِلا أَنْ خَرَجَ إِلَى الْحَجَّاجِ يَسْأَلُهُ مُنْفَرِدًا صِدْقَ الْخَبَرِ عَنْ مُحَمَّدٍ !

وَأَدْرَكَ الْحَجَّاجُ مَا بِنَفْسِ الْعَبَّاسِ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ ، فَقَالَ لَهُ :

سَآتِيكَ عَلَى انْفِرَادٍ أُخْبِرُكَ مَا عِنْدِى .

فَلَمَّا تَمَّ لِلْحَجَّاجِ جَمْعُ مَالِهِ ، وَأَعَدَّ نَفْسَهُ لِلسَّفَرِ . جَاءَ إِلَى الْعَبَّاسِ فَقَالَ لَهُ :

احْفَظْ عَلَىَّ حَدِيثِى يَا أَبَا الْفَضْلِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ . ثُمَّ قُلْ مَاشِئْتَ .

قَالَ الْعَبَّاسُ : لَكَ عَلَىَّ ذٰلِكَ .

قَالَ الْحَجَّاجُ : فَاعْلَمْ ، أَنِّى وَاللهِ قَدْ تَرَكْتُ ابْنَ أَخِيكَ عَرُوسًا عَلَى بِنْتِ مَلِكِهِمْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيىٍّ ، وَلَقَد افْتَتَحَ خَيْبَرَ ، وَاسْتَخْرَجَ مَا فِيهَا ، وَصَارَتْ لَهُ وَلأَصْحَابِهِ .

فَقَالَ الْعَبَّاسُ دَهِشًا مِمَّا سَمِعَ : مَا تَقُولُ يَا حَجَّاجُ ؟ !

قَالَ الْحَجَّاجُ : إِى وَاللهِ مَا قُلْتُ إِلاَّ الْحَقَّ ، وَمَا أَنْكَرْتُ ذٰلِكَ وَكَتَمْتُ إِسْلامِى إِلاَّ لأَخْرُجَ بِأَمْوَالِى مِنْ مَكَّةَ .

وَغَادَرَ الْحَجَّاجُ مَكَّةَ . وَمَضَتْ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ ، وَإِذْ أَبْنَاءُ قُرَيْشٍ يَرَوْنَ الْعَبَّاسَ وَقَدِ ارْتَدَى حُلَّةً قَشِيبَةً ، وَتَضَمَّخَ بِالطِّيبِ ، وَأَمْسَكَ بِيَدِهِ عَصَاهُ وَهُوَ يَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ .

وَدَهِشَتْ قُرَيْشٌ لِمَرْأَى الْعَبَّاسِ فِى حَالَتِهِ هٰذِهِ . وَلٰكِنَّهُمْ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَقُولُونَ :

يَا أَبَا الْفَضْلِ ! هٰذَا واللهِ التَّجَلُّدُ لِحَرِّ الْمُصِيبَةِ !

فَأَجَابَهُمُ الْعَبَّاسُ مُطْمَئِنًّا : كَلاَّ ، وَاللهِ الَّذِى أَقْسَمْتُمْ بِهِ ، لَقَدِ افْتَتَحَ مُحَمَّدٌ خَيْبَرَ ، وَأَحْرَزَ مَافِيهَا فَأَصْبَحَتْ لَهُ وَلأَصْحَابِهِ ، وَأَضْحَى عَرُوسًا عَلَى بِنْتِ مَلِكِهِمْ حُيَىِّ بْنِ أَخْطَبَ .

فَسَأَلُوهُ مُتَشَكِّكِينَ مِنْ قَوْلِهِ : مَنْ جَاءَكَ بِهٰذَا الْخَبَرِ؟ !

قَالَ : الَّذِى جَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ ، وَلَقَدْ دَخَلَ عَلَيْكُمْ مُسْلِمًا فَأَخَذَ مَالَهُ ، وَانْطَلَقَ لِيَلْحَقَ بِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ .

قَالُوا – وَقَدْ بُهِتُوا وَتَوَلاَّهُمُ الْكَمَدُ – : انْفَلَتَ عَدُوُّ اللهِ ، أَمَا وَاللهِ لَوْ عَلِمْنَا أَمْرَهُ لَكَانَ لَنَا وَلَهُ شَأْنٌ .

ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ قُرَيْشٌ بَعْدَ ذٰلِكَ غَيْرَ قَلِيلٍ ، حَتَّى جَاءَتْهَا الأَخْبَارُ تَتْرَى بِانْتِصَارِ مُحَمَّدٍ .

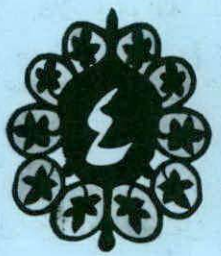

عَادَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَهُنَالِكَ ابْتَدَأَ الرُّسُلُ الَّذِينَ أَوْفَدَهُمْ بِكُتُبٍ إِلَى الْمُلُوكِ وَرُؤَسَاءِ الْبِلادِ يَطْلُبُ مِنْهُمْ فِيها الدُّخُولَ فى دِينِ الإِسْلامِ يَفِدُونَ عَلَيْهَا الْوَاحِدَ بَعْدَ الآخَرِ : مِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُ رَدًّا حَسَنًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُ رَدًّا سَيِّئًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُ رَدًّا وَسَطًا لا هُوَ بِالسَّيِّئِ وَلا هُوَ بِالْحَسَنِ .

فَقَدْ رَدَّ هِرَقْلُ قَيْصَرُ الرُّومِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ رَدًّا حَسَنًا ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَدْخُلْ فى الإِسْلامِ ، وَلَمَّا أَرْسَلَ إِلَيْهِ الْحَارِثُ الْغَسَّانِىُّ مَلِكُ الْحِيرَةِ يَسْتَأْذِنُهُ فى

أَنْ يحَارِبَ مُحَمَّدًا ، ردًّا عَلَى الْكِتَابِ الَّذِى أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ . أَغْفَلَ هِرَقْلُ هٰذَا الأَمْرَ .

أَمَّا كِسْرَى فَارِسَ فَقَدْ غَضِبَ أَشَدَّ الْغَضَبِ عِنْدَ تَلَقِّيهِ كِتَابَ مُحَمَّدٍ ، وَمَزَّقَ الْكِتَابَ وَبَعَثَ إِلَى عامِلِهِ فى الْيَمَنِ يأْمُرُهُ أَنْ يبْعَثَ إِلَيْهِ بِرَأْسِ هٰذَا الرَّجُلِ الَّذِى بِالْحِجَازِ .

فَلَمَّا بَلَغَ مُحَمَّدًا مِنْ رَسُولِهِ مَا فَعَلَ كِسْرَى مِنْ تَمْزِيقِهِ الْكِتَابَ . قَالَ : مَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ !

فَلَمْ يَلْبَثْ كِسْرَى أَبْرَويزُ بَعْدَ ذٰلِكَ كَثِيرًا حَتَّى قُتِلَ ، وَاعْتَلَى مَكَانَهُ ابْنُهُ شِيرَوَيْهِ ، وَرَأَى عَامِلُ الْفُرْسِ عَلَى الْيَمَنِ بِثَاقِبِ رَأْيِهِ أَنَّ الْفُرْسَ سَائِرَةٌ إِلَى الانْحِلالِ ، فَأَسْلَمَ ، وَسَعِدَ بِأَنْ يَكُونَ عَامِلاً لِمُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى الْيَمَنِ .

كَذٰلِكَ رَدَّ أَمِيرُ الْيَمَنِ وَعُمَانَ رَدًّا سَيِّئًا ، وَرَدَّ أَمِيرُ الْيَمَامَةِ مُظْهِرًا اسْتِعْدَادَهُ للإِسْلامِ إِنْ هُوَ نُصِبَ حَاكِمًا ، فَلَعَنَهُ النَّبِىُّ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ إِسْلامًا .

أَمَّا أَمِيرُ الْبَحْرَيْنِ فَقَدْ أَسْلَمَ ، وَأَسْلَمَ مَعَهُ أَهْلُ إِمَارَتِهِ .

وَكَانَ رَدُّ الْمُقَوْقِس عَظِيمِ مِصْرَ جَمِيلاً وَإِنْ لَمْ يُسْلِمْ . وَأَرْسَلَ إِلَى مُحَمَّدٍ هَدِيَّةً : جَارِيَتَيْنِ مَارِيَةَ وَشِيرِينَ ، وَبَغْلَةً بَيْضَاءَ ، وَحِمَارًا ، وَمِقْدَارًا مِنَ الْمَالِ ، وَشَيْئًا مِنْ خَيْرَاتِ مِصْرَ .

وَتَقَبَّلَ النَّبِيُّ ﷺ الْهَدِيَّةَ ، وَأَهْدَى شِيرِينَ إِحْدَى الْجَارِيَتَيْنِ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ، وَاحْتَفَظَ لِنَفْسِهِ بِمَارِيَةَ .

وَأَسْلَمَ نَجَاشِيُّ الْحَبَشَةِ ، وَأَرْسَلَ بِإِحْدَى جَوَارِيهِ إِلَى أُمِّ حَبِيبَةَ رَمْلَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ ، يَطْلُبُ يَدَهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَفَرِحَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ بِهٰذَا الشَّرَفِ الَّذِي أَوْلاهَا إِيَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ ، وَقَبِلَتْ مَا أَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَيْهَا يَسْأَلُهَا فِيهِ ، فَزَوَّجَ النَّجَاشِيُّ الرَّسُولَ مِنْهَا ، وَأَصْدَقَهَا عَنْهُ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ .

وَأَمَرَ النَّجَاشِيُّ بِسَفِينَتَيْنِ مِنْ سُفُنِهِ ، حَمَلَتِ الْمُسْلِمِينَ بِالْحَبَشَةِ ، وَمَعَهُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ابْنُ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ ، وَأُمُّ حَبِيبَةَ الَّتِي أَصْبَحَتْ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ - إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ .

وَتَلَقَّى أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْمُسْلِمِينَ الرَّاجِعِينَ مِنَ الْحَبَشَةِ بِالْبِشْرِ وَالتَّرْحَابِ .

أَمَّا مُحَمَّدٌ فَكَانَ سُرُورُهُ بِلِقَاءِ ابْنِ عَمِّهِ جَعْفَرٍ عَظِيمًا جِدًّا ، فَعَانَقَهُ وَقَبَّلَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ :

مَا أَدْرِى بِأَيِّهِمَا أَنَا أُسَرُّ ، بِفَتحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرَ ؟ !

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٨٦٣٠
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3530-X

١ / ٩١ / ٣٥٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)